

فيه. من هنا كان اهتمام هذه المؤلفات وما يزال محصوراً في نطاق فني ملون أحياناً بشيء من الزخرف الاجتماعي. والإنصاف يفرض علينا استناداً إلى حقيقة الأشياء وواقعها أن نميز بين تاريخ الأدب وسوسيولوجيا الأدب. وطرح القضية بهذه الصيغة يستند إلى التمييز بين موضوع تاريخ الأدب وموضوع سوسيولوجيا الأدب. فهما وإن تقاربا وترابطا ترابطاً عضوياً، تظل تفصل بينهما فوارق مميزة. وتتضح لنا حقيقة هذا التمييز على ضوء ما بين «علم العمران وعلم التاريخ» من اتفاق واختلاف.

إن اكتشاف المطبعة التي فتحت أمام الكتاب حدود الشغل اليدوي التي كانت تحنقه، أضفى على إنتاج الكتاب طابعاً صناعياً، مما استتبع انقياد الكاتب وصاحب المطبعة ومروج الكتاب في تيار تجاري فتوسعت حلقة العلاقات التي كان الكتاب في أساسها.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر بدأت بوادر اهتمام من قبل المفكرين بالناحية الاجتماعية التي يفترضها الأثر الأدبي. ويشير إسكاربيت في هذا المجال إلى مؤلف مدام دوستال «الأدب في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية» كونه أول محاولة لدراسة منهجية لمفهوم الأدب والمجتمع. غير أن مدام دوستال ظلت بعيدة عن مفهوم «سوسيولوجيا الأدب» بالمعنى العلمي الحديث إذ قصرت همها في كتابها هذا، كما حددته هي نفسها، في خطابها التمهيدي «البحث في مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير الأدب في الدين والعادات والقوانين»⁽¹⁾.

من هنا، كانت تلك المحاولة مجرد بارقة طليعية لسوسيولوجيا الأدب. إنما غابت عنها عناصر أساسية لهذا العلم المستحدث إذ بقيت الناحية الاقتصادية وقضية القراء، على هامش البحث، ناهيك بمسائل أخرى لقضية انتماء الكتاب الاجتماعي ووسعهم الثقافي، وحقوق المؤلف والجمعيات الأدبية الخ... ولا حاجة إلى التركيز على أن أية سوسيولوجيا، لا يمكن أن يتم لها استخلاص نتائج وتأكيد مبادئ وقوانين سوسيولوجية، إن لم تنطلق من وقائع معينة وتستند إلى إحصاءات دقيقة، خصوصاً بنظر إنسان العصر. والمكان

(1) مدام دوستال، في الأدب وعلاقته بالمؤسسات الاجتماعية، الخطاب التمهيدي.